Impact Factor (SJIF): 4.714 E-ISSN: 2583-1615

International Journal of Research in Academic World

Received: 23/December/2022 IJRAW: 2023; 2(1):172-173 Accepted: 30/January/2023

عبدالقاهر الجرجاني و آثاره الفنّية

*[1]Dr. Hafiz Syed Badiuddin Sabri

*[1]Professor & Head, Department of Arabic, Osmania University, Hyderabad, Telengana, India.

نحمده و نصلي على رسوله الكريم وعلى آله و صحبه أجمعين.

كان أكثر كتاب المشرق في العصور الوسطىٰ من سلالٍ فارسيّة أو سوداويّة[1]، و كان كتّاب الأندلس والمغرب أكثرهم من سلالٍ عربية، و إن كتّاب المشرق اكتسبوا شهرة عظيمة أكثر من كتاب المغرب كابن المقفّع و سيبويه و ابن الزيّات والحسن بن وهب و ابن العميد و صاحب ابن عبّاد و أبي بكر الخورازمي و بديع الزمان الهمداني والصابي والعماد الكاتب والطغرائي (صاحب قصيدة لامية العجم) والميداني (صاحب مجمع الأمثال) و الأصبهاني (صاحب الأغاني) والقاضي الفاضل و عبد القاهر الجرجاني وغيرهم[2]

إنّ صاحب (تاريخ أدبيات إيران) و صاحب (لغت نامه) ذَكَرا عبدالقاهر الجرجاني من أشهر علماء العلوم العربية من إيران.

هناك جرجانيّان شهيران، فأحدهما القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني صاحب كتاب ''الوساطة بين المتنبّى و خصومه'' الذي توفي سنة ٣٩٢ه قبل وفاة جرجاني آخر وهو عبدالقاهر بن عبدالرحمن صاحب ''دلائل الإعجاز'' و ''أسرار البلاغة'' و ''مائة عامل'' الذي توفي سنة ٤٨١ه.

ولد عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجانيّ في جرجان[3] (معرّب من گرگان) في شمالي إيران و يُكنى بأبي بكر، و نهل مبادئ علومه في بلدته ولم يخرج من بلدته حتى توفّي فيها سنة (٤٧١ ه/ ١٠٧٨م) فليس له استاذ سوى أبي الحسين الفارسيّ كما قال السيوطي رحمه الله في بغية الوعاة، ولكن صاحب روضات الجنات ذكر أنه تعلم من ابن جنّي و صاحب ابن عباد أيضًا[4].

الجرجانيّ عربيّ الروح واللسان مع أنه لم يخرج من بلاد فارس و قد برز في بادئ أمره شاعرا و حاول أن يتكسّب به غير أنه لم يسعد بهذا الميدان فمال إلى التأليف فأبدع و أجاد[5].

كان عبدالقاهر شافعيًا و أشعريا و كان من كبار أئمة العربية، فقال تاج الدين السبكي في الطبقات الشافعية عن الجرجاني: ''صار الإمامَ المشهور و المقصود من جميع الجهات من الدين المتين والورع والسكون''. و قال صاحب النجوم الزاهرة: ''النحوي واللغوي و شيخ العربية في زمانه كان إماما بارعًا متقنا انتهت إليه رياسة النحاة في زمانه''.

و يعدّ عبدالقاهر من أئمة اللغة والنحو والأدب وهو مؤسس علم البيان و واضع أصول البلاغة، و مع أن أبا عبيدة تلميذ الخليل بن أحمد ألّف ''مجاز القرآن'' في علم البيان و ابن المعتز و قدامة بن جعفر في علم البديع قبل عبدالقاهر و لكنّ علوم البلاغة لم تتكامل إلا على يد عبدالقاهر الجرجاني بكتابيه الشهيرين ''دلائل الإعجاز'' و ''أسرار البلاغة''.

قال سيد يحيىٰ بن حمزة الحسيني صاحب كتاب الطّراز في علوم حقائق الإعجاز: ''أول من أسس من هذا الفنّ قواعده و أوضح براهينه و أظهر فوائده و رتب أفانينه الشيخ العالم النحرير عَلم المحققين عبدالقاهر الجرجاني فلقد فكّ قيد الغرائب بالتقييد و هدّ من سُوَر المشكلات بالتسوير المشيد و فتح أزاهره من أكمامها و فتق أزراره بعد استغلاقها و استبهامها فجزاه اللّٰه عن الإسلام أفضل الجزاء...'' [6].

و إنّ السكّاكي (١١٦٠ - ١٢٢٨م) الذي يعتبر حجة في البيان و ألّف كتابه العظيم ''مفتاح العلوم'' استفاد من عبدالقاهر كثيرًا في تأليف كتابه فقال صاحب معجم المطبوعات تحت تعريف ''أسرار البلاغة'' للجرجاني: ''أسرار البلاغة في علم البيان - وهو كتاب مِن أقدم ما وضعه العرب في فنّ البيان - و عنه أخذ السكّاكيّ و علق عليه حواشيه صاحب المنار''[7].

و قال طاش كبرى زاده: ''من جملة مصنفّات عبدالقاهر ''دلائل الإعجاز'' و ''أسرار البلاغة'' في علمي المعاني و البيان، و هما الأية الكبرى و اليد البيضاء في العِلمَين المذكورين، و إليهما ينتهي علم من تأخّر في ذينك العِلمَين''[8].

فنه و نقده: إن ارتباط البلاغة بالنقد كان قويًا شاملا في القرون الأولى و إن مؤلفات العلماء في البلاغة كانت ممتزجة بالنقد إلى نهاية القرن الخامس كما نجد في هذه الكتب عددا من المباحث النقدية مثل قضية السرقات الشعرية و أهمية اللفظ والمعنى عن طريق الموازنة بينهما والنواحي الجمالية من النصوص الأدبية فلذا قيل إن النقد الأدبي أبو البلاغة العربية فنشأت في حجر النقد الأدبي حتى عرفت كلمة البلاغة بمدلولها الاصطلاحي المعروف منذ القرن الخامس حتى تحول علم البلاغة إلى تعاريف اصطلاحيّة و قواعد معيّنه إلى القرن السادس الهجري.

إن العلاقة القوية بين النقد و البلاغة ما زالت مستمرة إلى عصر عبدالقاهر الجرجاني، ثم فترت تلك العلاقة لضعف الروح الأدبية والملكة النقدية، فقال الدكتور شوقي ضيف في كتابه ''النقد الأدبي'' بعد أن يستعرض كتب النقد القديم كنقد الشعر و نقد النثر و كتاب الموازنة و الوساطة بين المتنبى و خصومه: ''و في أثناء ذلك تنمو دراسات إعجاز القرآن و بيان ما في أسلوبه من جمال و روعة لا تتطاول إليهما الأعناق و ينفذ عبدالقاهر من خلال هذه الدراسات إلى وضع نظريتيه المشهورتين في علمي المعاني والبيان، ثم تجمد الحياة العقلية والفنّية عند العرب و يجمد معها النقد، و يتحوّل إلى تلك المتون والشروح الكثيرة التي لا تضيف للنقد ولا للبلاغة أيّ شئ ذا قيمة حقيقيّة''[9].

فلذا يعتبر عبد القاهر الجرجاني من أئمة النقاد والبلاغيين في العصور الوسطىٰ و أودع في كتابيه آراء ثمينة عن مباحث النقد. كما يقول عبداللطيف السحرتي في كتابه: النقد الأدبي من خلال تجاربي ''والحق إننا إذا عدنا - لما كتب عبدالقاهر في كتابيه: ''دلائل الإعجاز'' و ''أسرار البلاغة'' وجدنا الشواهد الباهرة على براعة و دقّةِ هذا الناقد العظيم في تعليل جمال الأيات والعبارات التي أعجب بطلاوتها و حسن رونقها-''[10].

جرى الخلاف بين النقاد حول هذه القضية ''أن النقد ذوق أم علم'' و من الأدباء القدامىٰ الذين نادَوا بالذوق الجاحظ والصاحب بن عباد والبحترى و كذا كان رأى عبدالقاهر الجرجاني أن أساس النقد هو الذوق ولكنّه فوق ذلك يرى أن النقد ملكة الإحساس الروحاني فقال سيد قطب: ''وقد ردّد هذه النغمة عبدالقاهر في أخر ''دلائل الإعجاز'' أيضًا في فصل خاص: في بيان أن العمدة في إدراك البلاغة الذوق والإحساس الروحاني كما ردّدها في ''أسرار البلاغة''[11].

إن قضيّة اللفظ والمعنىٰ من القضايا البارزة في النقد الأدبيّ قديما و حديثا و هذه القضية سمّيت في النقد الحديث بالشكل والمضمون أو الصورة و المحتوى.

و تعدّدت و جهات النظر حول قضية اللفظ والمعنىٰ فمنهم من ينصرون اللفظ و يرفعون من شأنه، و منهم من يهتمّون بشأن المعنىٰ و يقلّلون من شأن اللفظ، و منهم من يسوّي بينها.

و لعبد القاهر الجرجاني رأي خاص في هذا المجال فرفض أن يكون مدار البلاغة أو الجمال الفني على اللفظ أو على المعنىٰ و رأى أنها جاثمة في العلاقة بين الألفاظ في العبارات و بينها و بين المعاني و سمّي هذه العلاقات ''النظم''[12]أي تنسيق الكلمات والمعاني.

فاشتهرت هذه النظرية عندالنقاد و تأثر بها علماء النقد الحديث أيضا فقال

*Corresponding Author: Dr. Hafiz Syed Badiuddin Sabri

الرّصانة والإتقان، و من مؤلفاته: [22]
(١)المغني: هو شرح ''الإيضاح'' لأبي على الفارسي في النحو، كتب شرحا مسبوطًا في نحو الثلاثين مجلدًا. (٢)المقتصد: هو شرح ''الأيضاح'' لخصه في ثلاثة مجلّدات. (٣)الإيجاز: هو تلخيص ''الإيضاح'' في مجلّد. (٤)الجمل في النحو. (٥)التلخيص في شرح الجمل في النحو. (٦)العمدة في تصريف الأفعال. (٧)التتمة في النحو. (٨)العوامل المائة أو مائة عامل: هذا الكتاب يدرس في المدارس إلى اليوم بشروحها و تراكيبها فاشتهر بين أوساط العلم ''شرح مائة عامل'' كتب عدّة من أهل العلم شروحًا و تعليقات على ''مائة عامل'' فمنهم:
الشيخ حاج بابا طوسي والشيخ حسام الدين توقاني والشيخ أحمد بن مصطفىٰ المعروف بطاشكبرى زاده (ت. ٩٦٨ه) والشيخ يحيىٰ بن بخشي (ت. ١٠٠٠ه) و يحيىٰ بن نصوح بن إسرائيل والعلامة بدر الدين محمود بن أحمد عيني (ت. ٨٥٥ه) والشيخ إبراهيم بن أحمد الجزري و سيد شريف علي بن محمد الجرجاني (ت. ٨١٦ه) و ملّا سعد اللّه و حسن بن موسىٰ الكردي (ت.١١٤٨ه).
(٩) إعجاز القرآن الكبير. (١٠)إعجاز القرآن الصغير. (١١)شرح الفاتحة. (١٢)درج الدرر في تفسير الآي والسور. (١٣)المعتضد في شرح إعجاز القرآن للواسطي. (١٤) مختار الاختيار في فوائد معيار النظار: وهو يحتوي على علوم البلاغة من البيان والمعاني والبديع والقوافي. (١٥)المفتاح في البلاغة. (١٦)أسرار البلاغة. (١٧)دلائل الإعجاز.
هذا الكتابان الأخيران اكتسب بهما الجرجاني شهرة عظيمة و برز من خلالهما أديبا و ناقدا و إماما من أئمة البلاغة، و مما لا ريب في أن عبدالقاهر الجرجاني أضاف كثير إلي العلوم العربية و نما الأدب والنقد كثيرا بأرائه و أفكاره.

الـهوامش:

المصادر و المراجع :

1. سوداوية: هم أهل السواد وهم سكّان الفرات من سلائل البابليين والأشوريين و ربما سمّوهم نبطا.
2. الوسيط في الأدب العربيّ و تاريخه للشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفىٰ عناني بك: ص:٢٠٤ و تاريخ أدبيات إيران لدكتور رضا زاده شفق.
3. جرجان: إقليم فتحه يزيد بن المهلّب سنة ٧١٦ - ٧١٧ و أسس فيه مدينة استراباذ وهي جرجان الحالية قاعدة للإقليم و قد عرفت قديما بدار المومنين (المنجد في الأعلام، ص:٢١٠)
4. على هامش لغت نامه لعلي أكبر دهخدا: ص:٤٤٣.
5. مشاهير العالم للدكتور محمد التونجي، ص:٥١.
6. مقدمة أسرار البلاغة لمحمد رشيد رضا.
7. علوم العربية لبروفيسور سيد محمد كبير أحمد مظهر، ص:٢٤٩ (نقلا عن معجم المطبوعات للسركيس: ١١ / ٦٨١).
8. مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ١/٥٧، ٥٨.
9. في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف، ص:٣٠.
10. النقد الأدبي من خلال تجاربي لعبد اللطيف السحرتي، ص:٥٩، ٦٠.
11. النقد الأدبي لسيد قطب، ٢١٧.
12. في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف، ص:١٦٥.
13. عن اللغة والأدب والنقد للدكتور محمد أحمد الغرب، ص:٢٨٩.
14. النقد الأدبي لسيد قطب، ص:١٢٩.
15. نفس المصدر، ص:١٢٩.
16. النقد الأدبي لعبد اللطيف السحرتي، ص:٥٥، ٥٦.
17. النقد الأدبي لسيد قطب، ص:٢٠٦.
18. نفس المصدر، ص:٢٠٩، ٢١٠.
19. النقد الأدبي الحديث لكمال زكي، ص:١٤٦.
20. النقد الأدبي لأحمد أمين، ص:٤١١.
21. النقد الأدبي لسيد قطب، ص:١٣٤.
22. مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ١/ ٥٧، ٥٨، و ظفر المحصلين بأحوال المصنّفين: ٣١٧، و كشف الظنون و لغت نامه لعلي أكبر دهخدا: ١٦/ ٣٢٠.

الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه ''النقد الأدبي الحديث'': ''وقد مسّ عبدالقاهر فيها نواحي جمالية التقي فيها مع بعض علماء الجمال في العصر الحديث وانتبه إلى دقائق في طبيعة اللغة و صلتها بالتفكير و في صلة الصياغة بالفكرة...'' [13].
و كذلك أحسّ عبدالقاهر أولا ضرورة الفلسفة الجمالية في الأدب وقد أعطاها العصر الحديث عناية كبيرة بهذه الفلسفةو قواعدها.
و قال سيد قطب في كتاب النقد الأدبي: ''وقد وصل في كتاب دلائل الإعجاز إلى تقرير نظرية هو أول من قررها في تاريخ النقد العربي، و يصحّ أن نسمّيها ''نظرية النظم''[14]. و بعد أن يقدّم سيد قطب الأمثلة من كتاب دلائل الإعجاز للكشف عن هذه النظرية قال: ''و مع أننا نختلف مع عبدالقاهر في كثير مما تحويه نظريته هذه بسبب إغفاله التام لقيمة اللفظ الصوتية مفردا و مجتمعا مع غيره، وهو ما عبّرنا عنه بالإيقاع الموسيقي... فإننا نعجب باستطاعته أن يقرر نظرية هامة كهذه -عليها الطابع العلمي- دون أن يخلّ بنفاذ حسّه الفنّي في كثير من مواضع الكتاب''.
إن عبدالقاهر طالع الشعر و الأدب من مختلف الوجهات الفنية كما يقول سيد قطب في النقد الأدبي:
''لقد حاول أن يضع قواعد فنّية للبلاغة والجمال الفنّي في كتابه ''دلائل الإعجاز'' كما حاول أن يضع قواعد نفسيّة للبلاغة في كتابه ''أسرار البلاغة'' و قد تأثر بالفسلفة الإغريقيّة و بالمنطق ولكن لا على طريقة ''قدامة'' فقد كان له من ذوقه الأدبي عاصم قويّ، فبقي في دائرة المنهج الفنّي في ''دلائل الإعجاز''و دخل بكتاب ''أسرار البلاغة'' في المنهج النفسي''[15].
قال عبداللطيف السحرتي:
يبهرنا عبدالقاهر الجرجاني بما أفاض فيه من عناصر بناء القصيدة من تشبيه و استعارة و تمثيل و كناية و مجاز، و قد تحدث عنها حديثا عجبا في كتابه ''أسرار البلاغة'' و أشهد أني عند تناول هذا الكتاب أعجبت بذهن هذا الأديب الناقد و خيّل إليّ أني أقرأ لباحث عصري متمكن في ''الصورة الشعرية'' و من آرائه المقدورة إلى اليوم في التشبيهات أولًا: أن التشبيهات القريبة، مثل تشبيه العين بالنرجس تشبيهات عامية لأنها مشتركة معروفة في أجيال الناس، و كذا تشبيهات الرؤية الصريحة مثل تشبيه الخد بالورد، و خير التشبيهات عنده ما كان فيها حركة لأنها تجمع بين الشكل و ماهية الحركة.
و من ذلك قول الشاعر:

والشمس من مشرقها قد بدت	مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بوتقة أحميت	يجول فيها ذهب ذائب

وكذلك قدم السحرتي كثيرا من الأمثلة الدالة على نظرياته الفنية[16].
إن العنصر النفسي بارز في كتابه ''أسرار البلاغة'' فقال سيد قطب يقدم كثيرا من أفكاره في البحث عن المنهج النفسي:
''هو أول مؤلف في الأدب العربي عالج موضوعه في طريقة علمية منظمة و جمع بين وجهة النظر الواضحة والاستقراء الدقيق''[17].
و ختم سيد قطب كلامه عن نظرات عبدالقاهر في المنهج النفسي بهذا القول:
''و لعلنا هنا قد أثبتنا ما قصدنا إليه هذا البحث من أن عبدالقاهر صاحب نظرية في النقد الأدبي، يستحقّ بها أن يأخذ مكانه في تاريخ هذه الدراسات و رجالها المحققين، و أن هذه النظرية ذات طابع سيكولوجي و ذوق واضح، و أن بهذا الطابع -و بين صاحبها والعصر الحاضر تسعة قرون- تمتّ بكبير صلة إلى اتّجاه من أهم الإتجاهات المعاصرة في دراسة النقد، يقوم على العناية بالعناصر الأصلية في الفن و بنواحي تأثيره في النفوس، و إذن قلنا أن نقول إن هذه النظرية كانت خطوة في الطريق الصحيح، و إنّها جديرة بالالتفات و النقد من دارسي البيان العربي الحديث، و إنّها تصلح أن تكون أساسا لنظرية حديثة في النقد العربي أوسع و أدق، تسير في المنهج التجريبي التحليلي -والذوقي العلميّ- الذي ابتدأ عبدالقاهر و تنهض بما لم يفطن إليه من نواحي النظرية الأدبية و تبيّن ما أجمله من مسالك الأدب إلى النفوس...'' [18].
إن لغة الأدب هي في جوهرها لغة تُجسّم الخيال و تبرز العاطفة و إنها محك في إثارة الحسن الجماليّ فقال كمال زكي: ''إن نقادنا الأقدمين ولا سيّما عبدالقاهر الجرجاني بلغوا درجة لا بأس بها في بيان قيمة اللغة الأدبية''[19].
و لم يسلك عبدالقادر الجرجاني طريقًا جافًا في شرح القواعد العربية والبلاغيّة و لم يترك فرصة من الفرص إلا انتهزها للحضّ على المعرفة المنظّمة و نفخ روحا جديدة في العلوم العربية فيقول أحمد أمين في النقد الأدبي:
''و من مميّزاته ربط النحو بالمعاني فنفث في النحو روحا لم تكن معروفة من قبل، ولا جرى الناس عليه فيما بعد، و عنده أنّ لتركيب الكلام أو كما نسمّيه نحن اليوم ''الأسلوب'' شأنا كبيرًا في تقريب المعنى أو إبعاده، و حسن الوقع أو إستهجانه''، و جرى على أثر عبدالقاهر جماعة سلكوا مسلكه في البلاغة و حرّروا مطالبه كالسكاكي، و زادوا في الأمثلة و فرّعوا التفريعات و لكن مع الأسف أفقدوا البلاغة روحها كما أتلفوا النقد''[20].
ولقد يؤيّد ذلك قول سيد قطب:
''ولقد وقفت خطوات النقد الأدبيّ بعد عبدالقاهر إلى أن استؤنفت في العصر الحديث''[21].
مؤلفاته: قد خلّف عبدالقاهر مؤلفات عديدة، في مجالات متفرّقة يغلب عليها